لَمَحَاتٌ عِلْمِيَّةٌ وَقُطُوفٌ تَفْسِيرِيَّةٌ

د. محمد دودح

الباحث العلمي بالهيئة العالميــة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة

لَمَحَاتٌ عِلْمِيَّـــةٌ وَقُطُوفٌ تَفْسِيرِيَّةٌ

د. محمد دودح

الباحث العلمي بالهيئة العالميـــة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

المُقَدِّمَة

لا خلاف في المنهج بين مفسري اليوم للآيات الكونية ومفسري الأمس؛ سوى تَجَلِّي بعض خفايا الخليقة بعد اكتشاف المنظار والمجهر وتطور وسائل الرصد، لتسطع البينة على أن هذا القرآن هو الحق، ولو كان مُفَسِّرِي الأمس مُعَاصِرِين لَسَارَعُوا إلى تفسير الآيات الكونية بالحقائق العلمية، فقد فاضت كتبهم ومن سار على دربهم بوجوه من الإعجاز في القرآن الكريم.

قَالَ الْفَخر الرازي: ""كَانَ عمر بن الحسام يقْرَأ كتاب المجسطي على عمر الْأَبْهَرِيّ فَقَالَ لَهما بعض الْفُقَهَاء يَوْمًا: مَا الَّذِي تقرأونه؟ فَقَالَ الْأَبْهَرِيّ أفسر قَوْله تَعَالَى {أفلم ينْظرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقهم كَيفَ بنيناها} فَأَنا أفسر كَيْفيَّة بنائها، وَلَقَد صدق الْأَبْهَرِيّ فِيمَا قَالَ؛ فَإِن كل من كَانَ أَكثر توغلا فِي بحار الْمَخْلُوقَات كَانَ أَكثر علمًا بِجلَال الله تَعَالَى وعظمته""[1]، والمجسطي هذا كتاب قديم في الفلك والرياضيات ألفه بطليموس حوالي عام ١٤٨م في الاسكندرية، وترجمه إلى العربية حنين بن إسحاق العبادي في عهد المأمون حوالي عام ٨٢٧م[2]، فما بالك بالمجلدات اليوم المزدانة بمفاخر الكشوف ومآثر العلوم!.

وتأتي الملامح العلمية بعفوية وتلطف لا يلفت عن غرض الإيمان، ولا مجال لاستنباط وجه علمي بمعزل عن تفهم بديع أساليب البيان، والخشية من تغير الحقائق العلمية مع الزمن حرص محمود؛ لكن الحقائق ثوابت لا تتغير مع الزمن كظلمة البحر العميق، والقول بأن الاجتهاد قد يصيب وقد يخيب صحيح؛ ولكن حرص المتضلعين بعلوم اللغة والشريعة والطبيعة كفيل بالتصويب.

والتفسير بالعلوم يُوَضِّح ما انتظرته الأيام ليتجلى ويسطع ويتحقق وعد جازم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ص:٨٧و٨٨، ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ٤١فصلت:٥٣، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ٢٧النمل:٩٣، ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ. لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ٦الأنعام:٦٦و٦٧، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ ١٠يونس:٣٩، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ٣٨ص:٨٧و٨٨.

د. محمد دودح

[1] فخر الدين الرازي؛ مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الثالثة؛ ١٤٢٠هـ (١٤\ ١٥٤).

[2] موسوعة ويكيبيديا والشبكة الدولية.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ ١٦النحل:٤٨.

Paragraph الفَقْرَة

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ. وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ١٦النحل:٤٨و٤٩،

keywords كَلِمَات إِرْشَادِيَّة

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾، ﴿يَتَفَيَّأُ﴾، ﴿ظِلَالُهُ﴾، ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾، ﴿سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾.

Translation (تَفْسِيرِيَّة تَرْجَمَة)

Do they not ponder on anything that Allah has created; turn round its shadows from right direction and left directions, prostrating to Allah and they are bowing in humility (16/ 48)**.**

لمَحَات بَيَانِيَّة وعِلْمِيَّة

Eloquent & Scientific Hints

كل إنسان ظله يلازمه وهو دوما مطروح على الأرض لا ينهض كأنه ساجد خاضع مختار لقدر الله تعالى في إيجاده كذلك.

في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾؛ الفيء: الرجوع، يُقَال (فاء) الرجل عن غضبه أي رجع عنه، و(فاء) الظل رجع إلى الجهة المقابلة عندما تتحرك الشمس ظاهريا من الشرق نحو الغرب بعد فترة الزوال عقب منتصف النهار؛ بينما اتجاه الظل أول النهار بالعكس نحو الغرب.

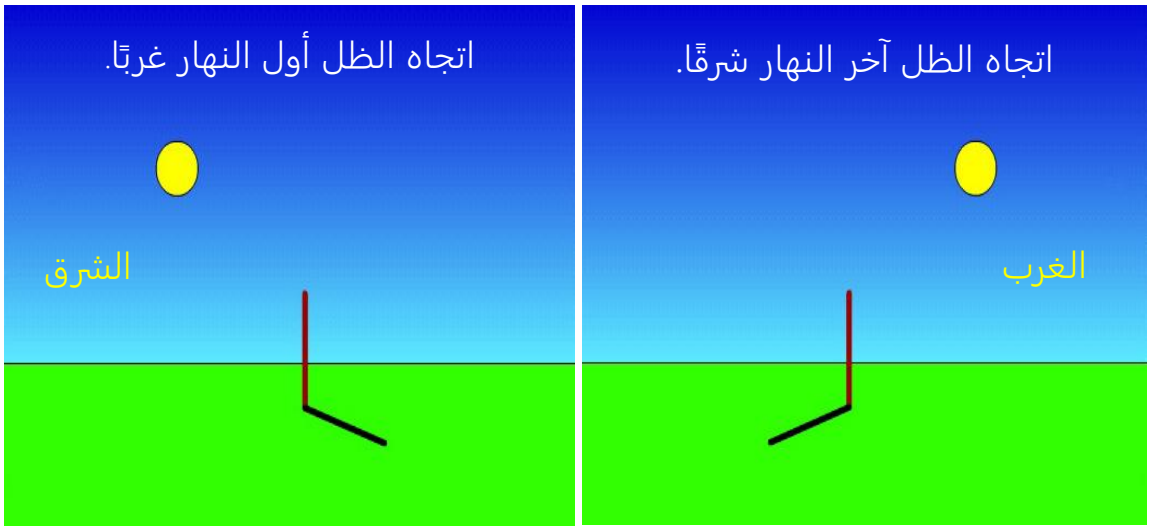

يتجه الظل عكس اتجاه الشمس من الغرب إلى الشرق؛ ولكنه انعكاس لحركة كوكب الأرض حول محوره من الشرق أي اليمين نحو الغرب.

وبعد الزوال يرجع الظل للجهة الأخرى فيتجه نحو الشرق، لذا كان العرب يسمون الفترة بعد الزوال بالفيء، وهو يحدث مرة واحدة بعد منتصف كل نهار؛ فَيُقَال (فَاءَ) الظل بالماضي، ولكن الفعل ﴿يَتَفَيَّأُ﴾ يدل بأصل صيغة المضارع على التجدد والاستمرار؛ نهار عقب آخر في البقعة الواحدة على سطح الأرض، والتعبير ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني كل ما خلقه الله تعالى من جنس الشيء الذي (تتفيأ) ظلاله فيشمل كل شيء، وضمير ﴿ظِلَالُهُ﴾ عائد على جنس الشيء.

وفاعل ﴿يَتَفَيَّأُ﴾ عائد على مفرد هو ظل فيء جنس الشيء في نهار بقعة واحدة على سطح الأرض، فصيغة الجمع ﴿ظِلَالُهُ﴾ إذن هي لظل فيء نهار يتبعه آخر؛ فتعني تتابع وقوع الفيء في بقعة تتبعها أخرى على طول السطح الكروي للأرض نتيجة استدارته، والفعل المزيد بتضعيف العين (يَتَفَعَّل) في التعبير ﴿يَتَفَيَّأُ﴾ إذن ينسجم بدلالته على المطاوعة للتوجيه (مثل عَلَّمْتُه فَتَعَلَّمَ وجَمَّعْتُه فتَجَمَّعَ)؛ مع استمرار حركة ظل الفيء باستمرار على طول السطح المستدير للكرة الأرضية بلا توقف لحظة واحدة، فيتحقق الاستسلام التام في سياق بيان خضوع أي شيء لتقديره تعالى؛ خاصة مع التمثيل بظاهرة الظل المطروح أرضًا على الدوام كأنه عاقل ساجد خاضع باختياره لتوجيه رشيد تعريضًا بالإنسان الغافل.

تتحرك الكرة الأرضية حول نفسها فيتغير موضع الوجه المقابل للشمس باستمرار، ويتحول الموضع يمين أول النهار (وقت الغدو) إلى شماله (يساره) آخر النهار (الأصيل)، وبتتابع مواضع الشمال تتعدد جهات الشمائل وأوقات الآصال.

والوصف في الآية الكريمة يتعلق بوقت مشاهدة تراجع اتجاه ظل الفيء للجهة المقابلة بعد الزوال بمنطقة معينة، ووقت الفيء لا يكون إلا في النهار، أي في النصف الكروي لكوكب لأرض المواجه للشمس؛ وحينئذٍ تُصبح جهة اليمين بالنسبة للنصف الكروي للأرض حيث يحدث رجوع الفيء هي: أول النهار؛ والشمال (اليسار): آخره، ويكون دوران ظل وقت الفيء بدايته ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾؛ أي أنه من اليمين متجه نهارًا نحو اليسار عكس عقارب الساعة Anticlockwise؛ وهو نفس اتجاه دوران كوكب الأرض حول محوره أمام الشمس واتجاه حركته حولها، وهو أيضا نفس اتجاه دوران كل الكواكب حول محاورها، وكذلك اتجاه دوران الطائف حول الكعبة، فظل وقت الفيء ينتقل إذن بانتقال الأرض عكس عقارب الساعة؛ أي أن دوران ظل الفيء ليس ذاتيا؛ وإنما يتحرك الظل بالحركة الفلكية لكوكب الأرض.

والشمائل جمع للجهة لتصبح جهات باستدارة الظل، ولأنه مُطابق لسطح الأرض؛ فمضمون التعبير استدارتها، والظل ليس واحدًا لجنس الشيء وإنما جمع: ﴿ظِلَالُهُ﴾؛ تناسبًا مع تغير الاتجاه، فوقت منتصف الليل عندنا؛ زوال يعقبه فيء في الجانب المقابل للكوكب، والتعبير بالمصدر ﴿الْيَمِينِ﴾ عن مبتدأ الحركة المُشاهدة؛ قاطع في تعيين الجهة الفعلية للحركة من المشرق إلى المغرب بعكس حركة الظل؛ فيجعل المُشاهدة لحركة الظل ظاهرية والحركة الفعلية هي للكوكب.

وهكذا في سياق بيان خضوع كل شيء لتقديره تعالى؛ التلميح لحركة الأرض تعبيرًا باللازم يجعل دلالة المطاوعة لصيغة (يَتَفَعَّل) في ﴿يَتَفَيَّأُ﴾ مظهرًا لمطاوعة الأرض لتقديره تعالى، ويتفق مع التفسير العلمي لعدة ظواهر فلكية كالقول بحدوث الكسوف عندما تحجب الأرض ضوء الشمس عن القمر، وحدوث الخسوف عندما يحجب القمر ضوء الشمس، وأن تغير أوجه القمر نتيجة انعكاس جزئي لضوء الشمس، ويجعل ظاهرة الليل المُقَابلة لجهة النهار ظلاً لكرة الأرض.

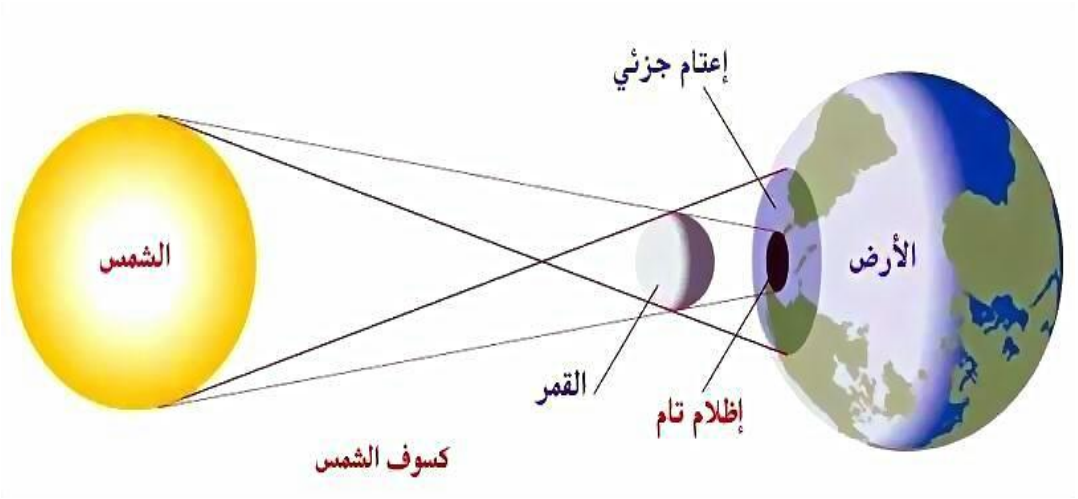

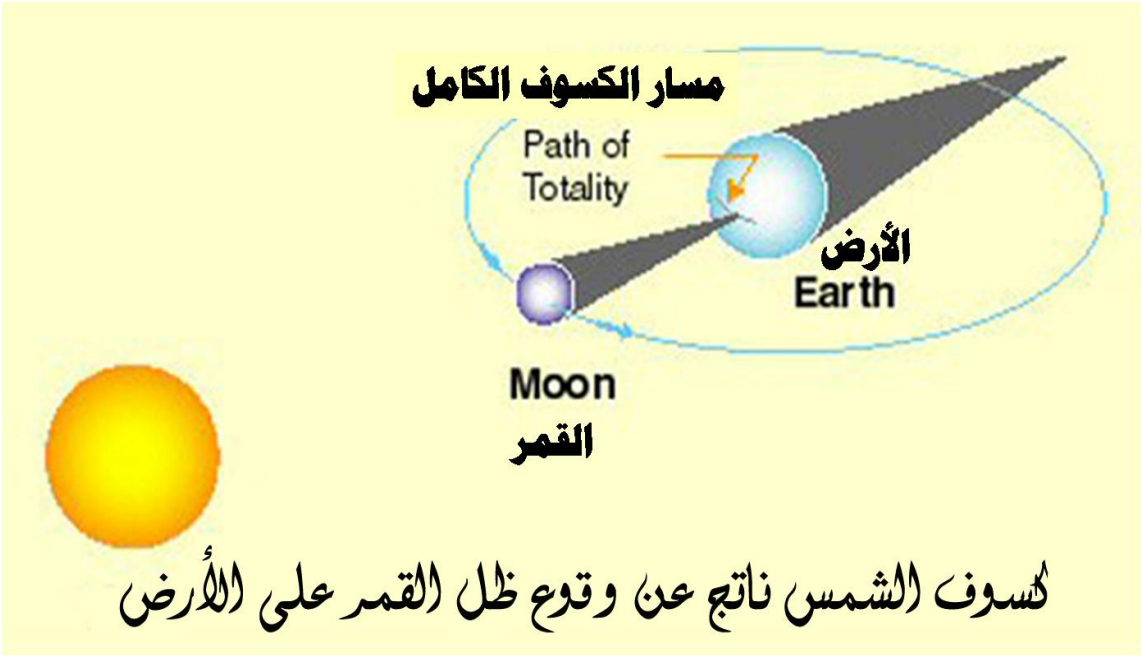

كسوف الشمس ناتج عن وقوع ظل القمر على الأرض

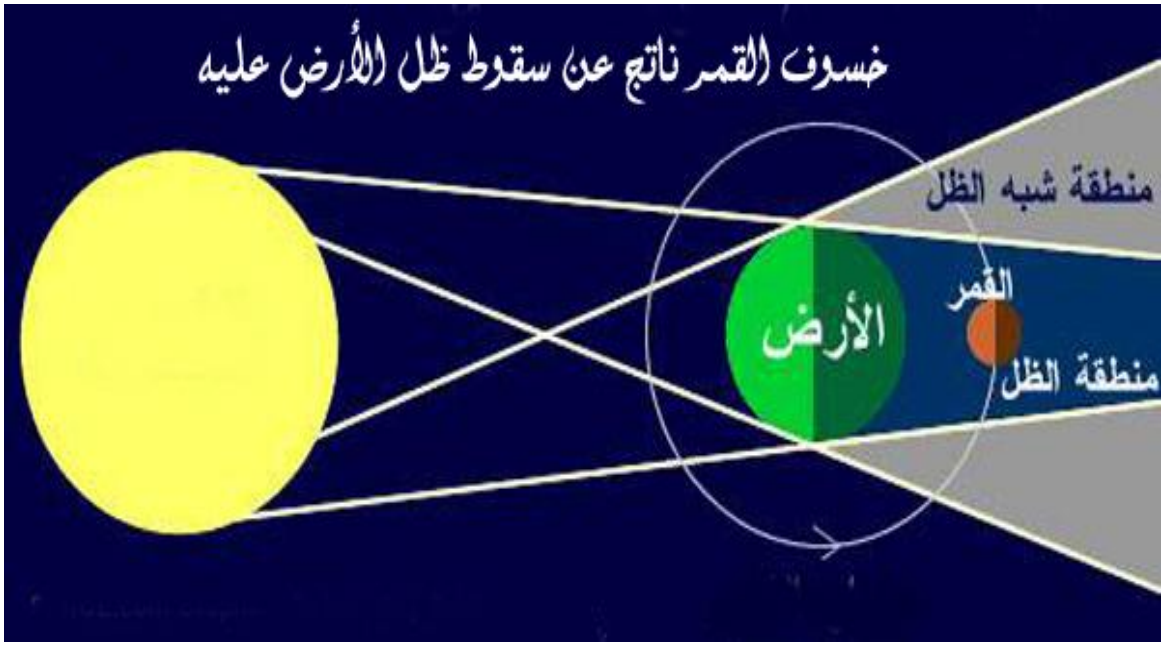

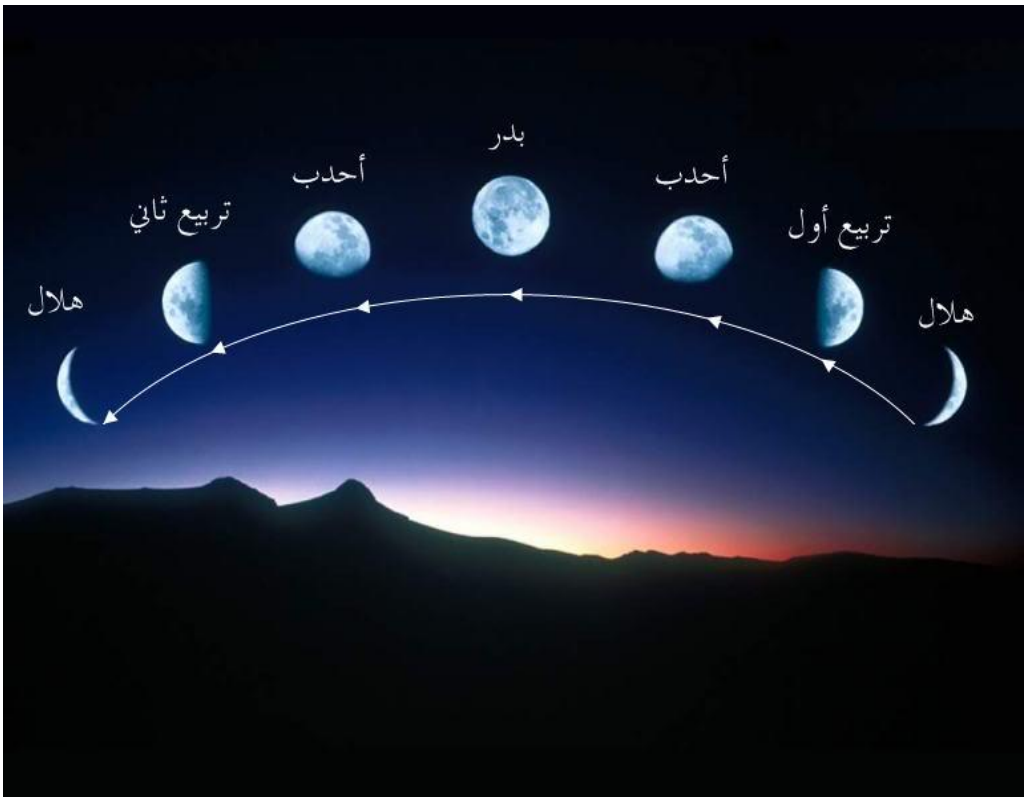

قال الرازي: "اللَّيْلُ عِبَارَةٌ عَنْ ظِلِّ الْأَرْضِ؛ وَالشَّمْسُ لَمَّا كَانَتْ سَبَبًا لِزَوَالِ ظِلِّ الْأَرْضِ كَانَتْ شَبِيهَةً بِالسِّرَاجِ"[٣]، و"ثَبَتَ أَنَّ طُولَ الْأَرْضِ مُحَدَّبٌ.. فَثَبَتَ أَنَّهَا كُرَةٌ..، (و) ظِلُّ الْأَرْضِ مُسْتَدِيرٌ فَوَجَبَ كَوْنُ الْأَرْضِ مُسْتَدِيرَةً..، (و) انْخِسَافُ الْقَمَرِ نَفْسُ ظِلِّ الْأَرْضِ؛ لِأَنَّهُ لَا مَعْنَى لِانْخِسَافِهِ إلَّا زَوَالُ النُّورِ عَنْ جَوْهَرِهِ عِنْدَ تَوَسُّطِ الْأَرْضِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّمْسِ..، وَانْخِسَافُ الْقَمَرِ مُسْتَدِيرٌ..، وَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ وَجَبَ أَنْ تَكُونَ الْأَرْضُ مُسْتَدِيرَةً..؛ ثم إن هذا الْكَلَامَ غَيْرُ مُخْتَصٍّ بِجَانِبٍ وَاحِدٍ مِنْ جَوَانِبِ الأرض لأن.. شكل الخسوف أبدا على الاستدارة، فإذن الْأَرْضَ مُسْتَدِيرَةُ الشَّكْلِ مِنْ كُلِّ الْجَوَانِبِ"[٤].

وقال الماوردي: "قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ ٢٥الفرقان:٤٥؛ أي بسطه على الأرض..، (و) الظل الليل لأنه ظل الأرض؛ يقبل بغروب الشمس ويدبر بطلوعها"[٥]، وقال بيان الحق: "﴿مَدَّ الظِّلَّ﴾: أي الليل؛ لأنه ظل الأرض الممدود.. من نصف وجهها الممتد.. إلى مدار القمر"[٦]، وقال محيي الدين درويش: "الليل ظل الأرض؛ وهو يدور على محيط كرة الأرض على حسب دوران الأرض، وكذلك النهار يدور أيضا لأنه يخلف الليل في المحيط"[٧]؛ أي يخلف محيط الأرض جهة الليل نتيجة دورانها حول نفسها.

وقال سيد قطب: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ ٣٩الزمر:٥، وهو تعبير عجيب يقسر الناظر فيه قسرا على الالتفات إلى ما كُشف حديثا عن كروية الأرض..؛ فهو يُصور حقيقة مادية ملحوظة على وجه الأرض، فالأرض الكروية تدور حول نفسها في مواجهة الشمس، فالجزء الذي يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء ويكون نهارا، ولكن هذا الجزء لا يثبت لأن الأرض تدور؛ وكلما تحركت بدأ الليل يغمر السطح الذي كان عليه النهار، وهذا السطح مكور فالنهار كان عليه مكورًا؛ والليل يتبعه مكورًا كذلك، وبعد فترة يبدأ النهار من الناحية الأخرى يتكور على الليل، وهكذا في حركة دائبة: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾؛ واللفظ يرسم الشكل ويحدد الوضع ويعين نوع طبيعة الأرض وحركتها، وكروية الأرض ودورانها يفسران هذا التعبير تفسيرًا أدق من أي تفسير آخر"[٨].

---

[٣] فخر الدين الرازي؛ مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الثالثة؛ ١٤٢٠هـ (١٣٠\ ٦٥٤).

[٤] فخر الدين الرازي؛ مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الثالثة؛ ١٤٢٠هـ (١٤\ ١٦٤).

[٥] الماوردي؛ النكت والعيون، تحقيق السيد عبد المقصود عبد الرحيم، دار الكتب العلمية بيروت (١٤\ ١٤٧).

[٦] بيان الحق محمود النيسابوري؛ باهر البرهان فى معاني مشكلات القرآن، سعاد بنت صالح بابقي، جامعة أم القرى بمكة المكرمة؛ ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م (١٢\ ١٠٢٤).

[٧] محيي الدين درويش؛ إعراب القرآن وبيانه، دار الإرشاد للشئون الجامعية حمص سورية، الطبعة الرابعة؛ ١٤١٥ هـ (١٦\ ٣٠٦).

[٨] سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي؛ في ظلال القرآن، دار الشروق بالقاهرة، الطبعة السابعة عشر؛ ١٤١٢هـ (١٥\ ٣٠٣٨).

وقال الشعراوي: "القمر أصغر من الأرض، وعندما تأتي الأرض بين الشمس والقمر.. فإن الأرض تحجب جزءاً من القمر..، ويصبح هذا الجزء من القمر مظلما..؛ الأرض عندما توجد بينه وبين الشمس فهي التي تحجب عنه ضوء الشمس، ويكبر حجم نوره كلما تزحزحت الأرض بعيداً عنه، وعندما تنزاح الأرض بعيداً عنه كليةً يظهر في السماء بدراً كاملاً؛ ثم تعود الأرض بعد ذلك لتحجب عنه جزءاً من الشمس، ويزداد ذلك يوماً بعد يوم، فينقص ضوء الشمس المنعكس عليه تبعاً لذلك؛ فيقل تدريجياً حتى تأتي الأرض بينه وبين الشمس فلا يظهر منه شيء..، (و) عندما لا نرى القمر لا في الليل ولا في النهار؛ برغم أنه موجود في مكانه، نقول: إنه مستور في ظل الأرض؛ لذلك لا نراه، وهذه الظاهرة.. (عندما) تحدث للشمس.. فإن الأثر.. يسمى بالكسوف، وعندما التفت العرب للكون قالوا: ما بال الهلال يصبح هكذا ثم يكبر حتى يصير بدراً، فقال الحق عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ ٢البقرة:١٨٩،، إنهم.. يسألون عن الأهلة ودورتها، فقطع الله عليهم خيط تفكيرهم وأعطاهم الخلاصة..، إن هذا الأمر هو الذي يستطيع العقل في ذلك الزمان أن يعرفه، أما ما وراء ذلك فانتظروا حتى يكشف الزمن عنه..، لقد كانت كل إجابة لأي سؤال في ذلك الزمان تحتوي على ما يتسع العقل لإدراكه..، أما بقية الإجابة فالحق يتركها للزمن؛ ولا يعطينا إلا ما يفيد..، مثال ذلك..: الأرض كرة؛ وأثبت لنا العلم أنها كذلك، ورأيناها بالأقمار الصناعية وانتهت القضية"[٩].

وقال ابن عاشور: "وَاللَّيْلُ اسْمٌ لِعَرْضِ الظُّلْمَةِ وَالسَّوَادِ الَّذِي يَعُمُّ مِقْدَارَ نِصْفٍ مِنْ كُرَةِ الْأَرْضِ؛ الَّذِي يَكُونُ غَيْرَ مُقَابِلٍ لِلشَّمْسِ، فَإِذَا حُجِبَ قُرْصُ الشَّمْسِ عَنْ مِقْدَارِ نِصْفِ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ.. فَأَخَذَ النُّورُ فِي الضَّعْفِ وَعَادَتْ إِلَيْهِ الظُّلْمَةُ الْأَصْلِيَّةُ الَّتِي مَا أَزَالَهَا إِلَّا شُعَاعُ الشَّمْسِ، وَيَكُونُ تَقَلُّصُ النُّورِ مُدَرَّجًا مَنْ وَقْتِ مَغِيبِ قُرْصِ الشَّمْسِ..، إِلَى أَنْ يَحْلُكَ السَّوَادُ فِي وَقْتِ الْعَشَاءِ حِينَ بَعُدَ قُرْصُ الشَّمْسِ عَنِ الْأُفُقِ الَّذِي ابْتَدَأَ مِنْهُ الْمَغِيبُ، وَكُلَّمَا اقْتَرَبَ قُرْصُ الشَّمْسِ مِنَ الْأُفُقِ الْآخَرِ أَكْسَبَهُ ضِيَاءً مِنْ شُعَاعِهَا ابْتِدَاءً مِنْ وَقْتِ الْفَجْرِ إِلَى.. الشُّرُوقِ إِلَى الضُّحَى، حَيْثُ يَتِمُّ نُورُ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ الْمُتَّجِهَةِ إِلَى نِصْفِ الْكُرَةِ تَدْرِيجًا، وَذَلِكَ الضِّيَاءُ هُوَ الْمُسَمَّى بِالنَّهَارِ؛ وَهُوَ النُّورُ التَّامُّ الْمُنْتَظِمُ عَلَى سَطْحِ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ"[١٠].

والتلميح بِتَلَطُّف إلى حركة كوكب الأرض أمام الشمس حول محوره بلازمها وهو حركة الظل في الاتجاه المعاكس؛ رافقته قرائن، فصيغة (يَتَفَعَّل) في ﴿يَتَفَيَّأُ﴾ تفيد استمرار رجوع اتجاه الظل عند الزوال نحو المشرق على طول السطح المستدير للأرض، فالفيء مستمر في كل لحظة ويتكرر دوريا، وصيغة (يَتَفَعَّل) تعني المطاوعة؛ وهي هنا تعني مطاوعة الظل لقدره في الحركة الظاهرية، وناسبه التعبير عن جهة الغرب بالجمع ﴿الشَّمَائِلِ﴾ تأكيدًا للاستمرار؛ ولا معنى لذلك إلا بالاستدارة وتغير جهة اليسار باستمرار بلا انقطاع لتصبح (شمائل)؛ حتى يقع الشروق على البقعة الأولى من جديد.

ولم يَرِد في القرآن الكريم جمع ﴿الشَّمَائِلِ﴾ إلا في موضع بيان دوران النهار على السطح المستدير للكرة الأرضية، وظاهرة النهار تمثل وجه الأرض المواجه للشمس أثناء دورانها؛ وحينئذٍ يكون يمين وجه الأرض أول النهار الذي تصدر عنه الحركة، واليمين جهة ثابتة بالنسبة لمراقب واحد بمنطقة بعينها؛ فناسبها التعبير بالمصدر: ﴿الْيَمِينِ﴾، أما التعبير عن جهة الشمال بالجمع فيتفق مع تغير الجهة دوريًا بسب استدارة سطح الأرض ليصبح الشمال: ﴿شَمَائِلِ﴾، وباستمرار حركة الظل؛ يحدث الفيء من جديد بعد دورة كاملة في الموقع الأول نتيجة كروية الأرض وحركتها، وهو نفس النمط وموافقة الواقع بإفراد وقت الغدو وجمع أوقات الأصيل بيانا لتعددها وتعدد المراقبين على طول السطح المستدير للأرض في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ فكليهما إذن وصف جامع شامل لظلال كل المناطق وجميع المراقبين على سطح الأرض، ويفيد أن حركتها ليست ذاتية؛ وإنما تتحرك بتحرك كوكب الأرض حول محوره أمام الشمس، ويعجز اللسان عن بيان إحكام النظم والإنباء بالغيب!.

[٩] محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي (الخواطر)، مطابع أخبار اليوم؛ ١٩٩٧م (١٢ ٨٠٩٠).
[١٠] محمد الطاهر بن عاشور؛ التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر تونس؛ ١٩٨٤هـ (١٢ ٧٩).

قُطُوف تَفْسِيرِيَّة

Interpretation picks

قال الماوردي: "قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ ١٦النحل:٤٨؛ فيه أربعة أوجه: أحدها: يرجع ظلالُه لأن الفيء الرجوع؛ ولذلك كان اسماً للظل بعد الزوال لرجوعه، الثاني: معناه تميل ظلاله؛ قاله ابن عباس، الثالث: تدور ظلاله؛ قاله ابن قتيبة، الرابع: تتحول ظلاله؛ قاله مقاتل، {عن اليمين والشمائل}.. اليمين أول النهار؛ والشمال آخر النهار؛ قاله قتادة والضحاك"[١١]، وفي المعجم الوسيط: "فَاء.. رَجَعَ، يُقَال: فَاء عَن غَضَبه؛ وَفَاء إِلَى حلمه، والظل: رَجَعَ من جَانب الْمغرب إِلَى جَانب الْمشرق..؛ وَلَا يكون إِلَّا بعد الزَّوَال"[١٢]، وفي تهذيب اللغة: "تَفَيّؤ الظلال: رُجوعها بعد انتصاف النّهار"[١٣].

وقال الشوكاني: "ذِكْرَ مَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ فِي تَدْبِيرِ أَحْوَالِ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ..، وَالِاسْتِفْهَامُ فِي (أَوَلَمْ يَرَوْا) لِلْإِنْكَارِ، وَ(ما) مبهمة مفسرة بقوله: (مِنْ شَيْءٍ)، قرأ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ وَيَحْيَى بْنُ وَثَّابٍ وَالْأَعْمَشُ (تَرَوْا).. عَلَى أَنَّهُ خِطَابٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ..، (يتفيأ ظلاله) أَيْ: يَمِيلُ مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ، وَيَكُونُ أَوَّلَ النَّهَارِ عَلَى حَالٍ وَيَتَقَلَّصُ، ثُمَّ يَعُودُ فِي آخِرِ النَّهَارِ عَلَى حَالَةٍ أُخْرَى، قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: تَفَيُّؤُ الظِّلَالِ: رُجُوعُهَا بَعْدَ انْتِصَافِ النَّهَارِ؛ فَالتَّفَيُّؤُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْعَشِيِّ (آخر النهار)..، وَمَعْنَى (مِنْ شَيْءٍ) مِنْ شَيْءٍ لَهُ ظِلٌّ، وَهِيَ الْأَجْسَامُ..، و(ظلاله): جَمْعُ ظِلٍّ، وَهُوَ مُضَافٌ إِلَى مُفْرَدٍ..، (عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ) أَيْ: عَنْ جِهَةِ أَيْمَانِهَا وَشَمَائِلِهَا، أَيْ: عَنْ جَانِبَيْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا، قَالَ الْفَرَّاءُ: وَحَّدَ الْيَمِينَ لِأَنَّهُ أَرَادَ وَاحِدًا مِنْ ذَوَاتِ الْأَظْلَالِ، وَجَمَعَ الشَّمَائِلَ لِأَنَّهُ أَرَادَ كُلَّهَا..، وقيل: المراد باليمين: النُّقْطَةُ الَّتِي هِيَ مَشْرِقُ الشَّمْسِ؛ وَأَنَّهَا وَاحِدَةٌ، والشمائل: عِبَارَةٌ عَنِ الِانْحِرَافِ فِي فَلَكِ (مدار) الْإِظْلَالِ بَعْدَ وُقُوعِهَا عَلَى الْأَرْضِ وَهِيَ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنِ الْمَشْرِقِ بِالْيَمِينِ لِأَنَّ أَقْوَى جَانِبَيِ الْإِنْسَانِ يَمِينُهُ، وَمِنْهُ تَظْهَرُ الْحَرَكَةُ الْقَوِيَّةُ، (سُجَّداً لِلَّهِ).. أَيْ: حَالَ كَوْنِ الظِّلَالِ سُجَّدًا لِلَّهِ. قَالَ الزَّجَّاجُ: يَعْنِي أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ مَجْبُولَةٌ عَلَى الطَّاعَةِ، وَقَالَ أَيْضًا: سُجُودُ الْجِسْمِ انْقِيَادُهُ..؛ (وَهُمْ داخِرُونَ).. أَيْ: خَاضِعُونَ صَاغِرُونَ، وَالدُّخُورُ: الصَّغَارُ وَالذُّلُّ"[١٤].

وقال عبد الكريم الخطيب: "تفيأ الظلّ: تنقل من جهة إلى أخرى..، وفى الآية الكريمة وعيد للمشركين، واتهام لعقولهم الضالّة المظلمة، التي أخرجتهم عن نظام الوجود كلّه فكانوا نغما نشازا لا يتناغم مع لحن الموجودات المسبّحة بحمد الله ربّ العالمين..، وقد أراهم الله سبحانه فى هذه الآية الكريمة صورة محسوسة لهذا الوجود وقد سجد فيه كل موجود ولاء لله وخشوعا لجلاله وعظمته..، فما خلق الله من شيء يرونه.. إلّا كان له ظل يتبعه ساجدا على الأرض سجود العابدين الخاشعين..؛ فى ذلة وانكسار لله الواحد القهار..، وفى قوله تعالى: (ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) إشارة إلى تلك الأشياء المحسوسة..، ولهذا كان لها ظلّ لما فيها من كثافة..، وفى قوله تعالى: (يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ) خروج على مألوف النظم؛ وهو إما أن يجيء هكذا: (يتفيّأ ظلّه) أو هكذا: (تتفيأ ظلاله)؛ بمعنى أنه إذا أفرد الفاعل جاء الفعل مذكرا وإذا جمع الفاعل جاء الفعل مؤنثا..، ولكنه في النظم القرآني جمع بين الأمرين.. فجاء بالفعل مذكرا وبالفاعل جمعا..، وهذا إعجاز من إعجاز القرآن الكريم؛ إذ دلّ بهذا على أن الفاعل وهو الظل.. مفرد في أصله..، ولكنه في.. حركاته.. يكون ظلالا لا ظلا واحدا..؛ فهو جمع في واحد وواحد في جمع، وهذا بيان لا يكون إلا في كلمات الله وفى كتابه المبين"[١٥].

---

[١١] الماوردي؛ النكت والعيون، تحقيق السيد عبد المقصود عبد الرحيم، دار الكتب العلمية بيروت (٣\ ١٩١).

[١٢] مجمع اللغة العربية بالقاهرة؛ المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار، دار الدعوة (٢\ ٧٠٧).

[١٣] أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري الهروي؛ تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الأولى؛ ٢٠٠١م (١٥\ ٤١٤).

[١٤] محمد بن علي الشوكاني؛ فتح القدير، دار ابن كثير دمشق، الطبعة الأولى؛ ١٤١٤هـ (٣\ ١٩٩).

[١٥] عبد الكريم يونس الخطيب؛ التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي بالقاهرة (٧\ ٣٠٤).

وقال أبو زهرة: "(من شيء): (مِن) بيانية أو لاستغراق النفي، والاستفهام هنا إنكاري..؛ والمعنى انظروا وفكروا إلى ما خلق من أشياء تتفيأ ظلاله، أي لها فيء ولهذا الفيء ظل..، (و) تتفيأ الظلال ذات اليمين وذات الشمال، وعبر عن الجانبين المقابلين باليمين والشمال، فقوله (عن اليمين والشمائل): عن الجانب اليمين من ناحية الشرق وعن الشمائل من جهة الغرب..، وعبر عن اليمين بالمفرد ويراد به الجمع؛ لأنه أفياء مختلفة تطول ابتداء وتقصر عند الظهيرة، ثم تكون الأفياء ناحية الغرب تبتدئ قصيرة من فيء الزوال ثم تكبر شيئا فشيئا حتى تستطيل طولا كثيرا، وفى التعبير عن اليمين بالمفرد إشارة إلى نهايته، وإلى أنه لَا يرى إلا قصيرا بينما الشمال لَا يرى إلا طويلا، ويزداد شيئا بعد شيء؛ ولذا عبر فيه بالجمع وهو شمائل، والاثنان جمع، فهو أفياء"[16]، وقال القاسمي: "الابن الصائغ في سر توحيد اليمين وجمع الشمائل توجيه لطيف..، (قال) لأن ظل الغداة يضمحلّ بحيث لا يبقى منه إلا اليسير، فكأنه في جهة واحدة؛ وهو في العشيّ على العكس لاستيلائه على جميع الجهات..، وأما من جهة اللفظ فَجُمع ليطابق (سُجَّدًا)..؛ كما أفرد الأول لمجاورة ضمير (ظِلَالُهُ)، وقدّم الإفراد لأنه أصل أخف"[17].

وقال ابن عاشور: "تَفَيُّؤُ الظِّلَالِ تَنَقُّلُهَا (من المغرب نحو المشرق).. بَعْدَ زَوَالِهَا..، وَأُفْرِدَ الْيَمِينُ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ جِنْسُ الْجِهَةِ..؛ وَجَمْعُ الشَّمَائِلِ مُرَادًا بِهِ تَعَدُّدُ جِنْسِ جِهَةِ الشَّمَالِ بِتَعَدُّدِ أَصْحَابِهَا، كَمَا قَالَ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ. عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ ٧٠المعارج:٤٠و٤١..، وَأُفْرِدَ الضَّمِيرُ الْمُضَافُ إِلَيْهِ (ظِلَالُ) مُرَاعَاةً لِلَفْظِ شَيْءٍ..، بَيَانُ ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ١٣الرعد:١٥، وَجُمْلَةُ وَهُمْ داخِرُونَ.. فِي مَعْنَى الْجَمْعِ لِرُجُوعِهِ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ؛ وَجُمِعَ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ الْخَاصَّةِ بِالْعُقَلَاءِ..، وَالدَّاخِرُ: الْخَاضِعُ..، أَيْ دَاخِرُونَ لِعَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى"[18]، وقال الإيجي: "(يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ).. يميل ويدور، (عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ) جمع الشمال باعتبار كل ما خلق الله تعالى، (سُجَّدًا لله).. سجودها انقيادها لما قدر له من التفيؤ..، (وَهُمْ دَاخِرُونَ) صاغرون.. جمعه بالواو والنون للتغليب أو لأن الدخور والسجود من أوصاف العقلاء، واليمين يمين الفلك أي الجانب الشرقي (مدار الأجرام الفلكية حين بزوغها من جهة الشرق)، والشمال الجانب الغربي..؛ استعارة من يمين الإنسان وشماله، (وَلله يَسْجُدُ): ينقاد، (مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ) والدبيب هي الحركة الجسمانية؛ فجاز أن يكون بيانًا لما في السماوات أيضًا (من دواب)"[19].

وفي تفسير مجمع البحوث: "{يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ}: تفيُّؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار؛ من فاء يفيء إذا رجع، {دَاخِرُونَ}: أذلاء منقادون؛ من الدُّخُور وهو الصغار والذل..، فكل ذي ظل منها {يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ}: أي ينتقل ويرجع من جانب لآخر بارتفاع الشمس وانحدارها؛ أو باختلاف مشارقها ومغاربها، فإن لها مشارق ومغارب حسب مداراتها اليومية التي تتحرك فيها كل يوم من أيام السنة وفق تقدير العزيز العليم، {عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ}: المراد بهما جانبا الشيء، استعارة عن يمين الإنسان وشماله، والمعنى أن ظلال الأشياء متفيئة عن جانبي كل واحد منها، ترجع من جانب إلى جانب، فتكون أول النهار على حال وآخره على حال أخرى؛ وذلك أنها تميل إلى جهة المغرب من وقت الشروق إلى الزوال، وتميل بعده إلى وقت الغروب راجعة إلى جهة الشرق، {سُجَّدًا لِلَّهِ}: أي حال كون هذه الظلال منقادة لإرادته تعالى في الامتداد والتقلص والرجوع من حال إلى حال خاضعة لأحكام تدبيره غير ممتنعة عليه سبحانه فيما سخرها له؛ وذلك هو المراد بسجودها، {وَهُمْ دَاخِرُونَ}: أي أن أصحاب هذه الظلال التي انقادت ظلالها لما قدر لها من التفيؤ أذلاءُ منقادون لحكمه تعالى..، وعبر بضمير العقلاء.. مع شمول الحكم لسواهم تغليبًا للعقلاء، {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ}: شروع في بيان سجود المخلوقات المتحركة بالإرادة بعد بيان سجود الظلال.. تأكيدًا لبيان قدرة الله جل شأنه..، وأنه سبحانه.. ينقاد له جميع ما في السماوات.. وما في الأرض.. وقوله (من دابة).. قيل بيان لما في السماوات وما في الأرض جميعًا؛ بناء على أن الدبيب هو الحركة الجسمانية..، وربما كان ذلك إشارة إلى وجود أجسام عاقلة على بعض الكواكب؛ وقد عزى هذا الرأي إلى ابن عباس وغيره"[20]، يعني إلحاقا ببيان دوران الأرض؛ تدور ظلال كل من في السماوات من عاقل وجماد بدوران كواكبهم كذلك حول شموسهم.

---

[16] محمد بن أحمد أبو زهرة؛ زهرة التفاسير، دار الفكر العربي (١٨ ٤١٨٩).

[17] محمد جمال الدين القاسمي؛ محاسن التأويل، المحقق محمد باسل عيون السود؛ دار الكتب العلميه بيروت، الطبعة الأولى؛ ١٤١٨هـ (١٦ ٣٧٦).

[18] محمد الطاهر بن عاشور؛ التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر تونس؛ ١٩٨٤هـ (١٤ ١٦٩).

[19] محمد بن عبد الرحمن الإيجي؛ تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى؛ ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م (١٢ ٣٤٠).

[20] مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر؛ التفسير الوسيط، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة الأولى؛ ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م (١٥ ٦٢٦).

الحَقْل العِلْمِي Scientific Field

Astronomy

فلك

المَوْضُوع Subject

Earth Globe Rotation & Revolution

كروية الأرض وحركتها

نُصُوص مُتَعَلِّقَة Related Texts

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ ١٦النحل:٤٨.
- ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ١٣الرعد:١٥.
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا. ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ ٢٥الفرقان:٤٥-٤٧.
- ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ ١٢يوسف:١٠٥.
- ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ٣٩الزمر:٥.
- ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ٣٦يس:٣٧-٤٠.
- ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ٢١الأنبياء:٣٣.
- ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ ٧الأعراف:٥٤.
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ٣١لقمان:٢٩.
- ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ٣٥فاطر:١٣.